

الفصل الثامن

نابليون بونابرت وعصره

ولد بونابرت في عام ١٧٦٩ في مدينة أجاكسيو عاصمة كورسيكا الواقعة بين إيطاليا وفرنسا ، واتجهت ميوله منذ حداثة سنة الى الخشونة وأعمال الحرب فبينما كان أخوته يشترون لعبا عادية ويرسمون على الجدران وجوها آدمية وحيوانات نراه يشتري بمصروفه سيفا صفيرا وبنفرا ويرسم على الحوائط صفوفا متراصة من الجند وكأنها في حومة الوغى ، والى جانب ذلك فقد برزت عليه حب الزعامة ، فكان بونابرت يجمع رفاقه ويتسممهم قسامين يجعل نفسه على رأس أحدهما ويجعل على رأس الفريق الثانی أصلبهم عودا وقواهم بنية ، ثم يأمر كل فريق بالهجوم على الآخر فتدور معركة بالأيدى والطوب والعصى وتظل ناشبة حتى يفر الفريق الآخر من أمامه ، فيقف مزهوا يثنى على همة الشجعان من مجموعته وينهال بالضرب على فائر العزيمة أو المقصر ثم يعود الى منزله دامى الوجه واليدين ممزق الثياب فتعهره والدته فيتلقاها باسمها بقوله لقد انتصرت^(١) .

وقد أظهر بونابرت تفوقا في حياته الدراسية على أقرانه خصوصا في علوم الرياضيات والتاريخ السياسى ، وتراجم سير القادة الزعماء ، والجغرافيا ، وبرزت عليه علامات النباهة والذكاء

وقد راصل بونابرت تعليمه حتى التحق بمدرسة باريس الحربية في أكتوبر ١٧٨٤م ، وهناك تفتحت عبقريته العسكرية حيث بدأ العمل في صمت ، واعتكف على المطالعة والدرس والاجتهاد ، وكان مما قرأه وتحسس له

(١) حسن الشريف : المآسى التاريخية الكبرى ، القاهرة ، دار

كتاب « العهد الاجتماعي » لجان جاك روسو ، وبعد تخرجه عين برتبة ملازم في سلاح المدفعية ، فبرز تميزه بالجد وقدرته على التنظيم ، واستعداداه لنحمل المسؤولية والقيادة ، وإيمانه بأن الحق يؤخذ ولا يعطى وكان بحكم تكوينه محبا للنظام والقانون ومعاديا للفوضى ، ومن هنا وجدت فيه كل قوة نعين على التكاتف الاجتماعي عونا ونصيرا .

فلما قامت الثورة الفرنسية ، كان بونابرت من أشد المدفعين عنها وعن أهدانها ، كما كان من المتحمسين لفكر الجمهورى الثورى ، ولأفكار أدياء القرن الثامن عشر أمثال فوليتير ومونتسكيو ورويسو .

وخلال أحداث الثورة ، والصراع المرير في فرنسا على السلطة ظهر ضموح بونابرت الواسع ، خصوصا بعد أن تزوج من جوزفين^(٢) التي فتحت أمامه أبواب الشهرة والمجد . وقد برزت مهارة بونابرت وقدرته على مواكبة الأحداث ، وظهر ذلك أثناء حصار طولون في عام ١٧٩٢م وتمكنه من الاستيلاء على هذه المدينة وتخليصها من يد الانجليز .

وعندما تم اختياره قائدا لقوى الأمن الداخلى في فرنسا اثناء حكومة الاداره يمكن من اعادة الهدوء والنظام الى فرنسا ، واكتساب ثقة الجماهير ، والتضاء على المظاهرة التي قام بها الملكيون والعناصر المحافظة ضد المؤتمر الوطنى ، كما كان السند الحقيقى لهذه الحكومة ولدستور عام ١٧٩٥ يضاف الى ذلك أنه تمكن من انقاذ الحكومة من العناصر الملكية فى عام ١٧٩٧م .

ولما كانت فرنسا محاطة آنذاك بأعداء كثيرين خصوصا بعد تصريحات زعمائها باستعدادهم لتأييد كل أمة تطالب بحريتها ، مما اعتبره البعض تهديدا مباشرا لدول أوروبا الملكية مثل بريطانيا ، وروسيا ، وبروسيا فقد اعتبرت حكومة الادارة نفسها فى حالة حرب مع جيرانها خصوصا بريطانيا والنمسا ، وشرعت فى رسم خططها لمحاربتهم ، ونظرا لأن بريطانيا

(٢) أرملة الجنرال بوهارنيه أحد ضحايا حكم الارهاب وكان لها منزلة كبيرة فى قلوب الفرنسيين .

كانت محصنة بحريا ، ولا يقوى الأسطول الفرنسى على الوصول الى شواطئها ، فقد تركزت الجهود لشن هجوم على الممتلكات النمساوية فى ايطاليا ، فأرسلت حكومة الادارة عدة حملات الى هذه المناطق فى عام ١٧٩٦م كانت احداها تحت قيادة بوناپرت الذى نجح فى أداء مهمته التى نشل القادة الآخرون فيها ، ويرجع ذلك الى قدرته الحربية الفائقة ، وتمكنه من اتخاذ القرارات فى الوقت المناسب وقدرته الواضحة على التمييز بين الممكن وغير الممكن فبعد أن وجد قواته أمام جيش مشترك من السردنيين والنمساويين تمكن من أن يعزل بينهما ، وينزل الهزيمة بالسردنيين ويفرض عليهم الهدنة التى انسحبوا بمقتضاها من الحرب متخليين عن سافوى ونيس لفرنسا ثم زحف على ميلانو ، وانتصر على النمساويين فى عدة معارك أهمها معركة ريفولى ، وتقدم بوناپرت الى الحصن النمساوى الرئيسى فى ايطاليا وهو حصن « مانتوا » العظيم الذى كانت تحميه مدفعية قوية ، وتحيط به البحيرات والمستنقعات من معظم الجوانب ، واستطاع الاستيلاء عليه .

ونتيجة لذلك اضطر النمساويون فى ١٧ من اكتوبر ١٧٩٧م الى توقيع صلح « كامبوفورميو » وبمقتضاه تم التنازل لفرنسا عن الاراضى البلجيكية ، وولاية الراين ، واقامة جمهورية فى شمالي ايطاليا وأعطيت معظم الجزر الايونية لفرنسا ، وهكذا نجح بوناپرت فى اخراج النمسا من الحرب ، وعزل بريطانيا التى بقيت فى الميدان وحدها مما زاد من ثقته فى نفسه ، وجعله فى نظر الشعب الفرنسى رجل فرنسا الاول .

ولما أصرت حكومة الادارة على هزيمة بريطانيا قبل توقيع اى صلح معها أعدت جيشا أطلق عليه جيش انجلترا ، ودربته على غزو الجزر البريطانية ، ولكن تفوق الأسطول البريطانى جعل ذلك المشروع ضربا من الخيال ، ومن هنا أخذت حكومة الادارة تبحث عن نقطة ضعف فى غريميتها^(٢) وخلال ذلك أرسل بوناپرت الى حكومة الادارة برقية يقول فيها (لأجل القضاء على انجلترا ينبغى غزو مصر) وكان بوناپرت يقصد بذلك أن مصر هى المركز الخطير الذى يمكن عن طريقه تهديد مركز الانجليز فى الهند ،

(٢) جرائد وتمبرلى : المرجع السابق ص ١٤٨ ، ١٥٤ .

فكلفت حكومة الادارة بونابرت باعداد حملة للاستيلاء على مصر ، وطرد الانجليز من جميع ممتلكاتهم التي يستطيع الوصول اليها ، ووصلت الحملة الى مصر في عام ١٧٩٨م ، وتمكن بونابرت خلالها من هزيمة المماليك ، كما اذاع منشوره على المصريين ، ولكن هذه الحملة كان مصيرها الفشل خصوصا بعد تحطيم الأسطول الفرنسي في موقعة ابي قير ، وانقطاع سبل الاتصال بين الحملة وفرنسا ، وتقطع الامدادات عن قوات بونابرت ، كما وجد بونابرت نفسه منعزلا ومضطرا الى الاعتماد على موارد مصر التي ارهقتها المماليك من قبل كما فكر في ضرب التحالف العثماني الانجليزي ، وتوسيع ممتلكاته وذلك بالزحف على سوريا ، ولكن آماله تحطمت عند أسوار عكا ، فانسحب الى مصر مثقلا بأول هزيمة خلال قيادته لقواته .

ولما بلغته الأنباء من أوروبا بهزائم بلاده وتدهور أحوالها ، وتكوين تحالف دولي ضدها بزعامة بريطانيا : عقد العزم على مغادرة مصر الى فرنسا وترك قواته تحت قيادة كليبر .

وقد وصل بونابرت الى فرنسا في أكتوبر ١٧٩٩م ، فكانت عودته بالنسبة للفرنسيين بمثابة عودة الأمل الضائع ، ووصول الرجل المنتظر لذي يستطيع تصحيح أوضاع فرنسا ، وانقاذها من الفوضى والاضطراب فاستقبل بحماسة شديدة ، وحفت به الجماهير من كل جانب حيث ذكر الناس انتصاراته خلال حروبه في ايطاليا ، وكان أماله أولا انخلص من أعضاء حكومة الادارة بطريقتين اما اغرائهم بالاستقالة أو استعمال القوة ، ولما لم ينجح الحل الأول لجأ الى القوة ، واستطاع الفوز بالسلطة بعد انقلاب برومير ، وأعلن عن نوع جديد من أنواع الحكم في فرنسا وهو النظام التنصلي .

لقد كان بونابرت يعرف حق المعرفة أن النصر وحده هو الكفيل بأن يحفظ له المركز الذي فاز به .

ولما كان لابد من اعطاء هذا الانقلاب صفة الشرعية فقد جرى تعديل الدستور حيث وضع لفرنسا دستورا جديدا وهو الدستور المعروف بدستور ١٧٩٩م ، وقد جاء هذا الدستور مطابقا لأفكار ونظريات بونابرت

في الحكم ، ولرغبته في الحكم الفردي ، والتأييد الشعبي المطلق له ، فجمع كل السلطات في يديه حتى يتمكن من بناء فرنسا الحديثة ، وقد جعل بونابرت نفسه مسئولا عن انقاذ فرنسا من فوضى الصراعات الداخلية والمخاطر الخارجية لذلك وضع نفسه فوق كل الأحزاب ومن هنا قضى الدستور الجديد بوضع الساطة التنفيذية في يد ثلاثة قنصل يتم انتخابهم بواسطة مجلس الشيوخ ، ويستمررون لمدة عشر سنوات ، وقد تولى بونابرت مركز القنصل الأول على أن يساعده في مهمته قنصلان آخران يقوم باختيارهما بنفسه ، وكان دورهما يتركز في القيام بدور نواب القنصل الأول . وفي ظل النظام القنصلى نعم الفرنسيون بحياة أفضل ، فأعيد الاستقرار وازدهر الاقتصاد ، وتم تنظيم الجيوش ، وأعيد الرخاء لكل مرافق الدولة ، والى جانب ذلك تمقد تقرر أن يتولى وضع القوانين في فرنسا ثلاث هيئات هي :

١ — مجلس الشيوخ المحافظين وعدد أعضائه ستين عضوا يختارهم القنائل وتنحصر مهمتهم في الاشراف على تطبيق أحكام الدستور ، وانتخاب أعضاء مجلس التربيون والجمعية التشريعية .

٢ — مجلس التربيون ويضم مائة عضو مهمتهم مناقشة مشروعات القوانين المقترحة .

٣ — الجمعية التشريعية وتضم ثلاثمائة عضو ومهمتهم الادلاء بأصواتهم بشأن المقترحات التي ترد اليهم من مجلس التربيون .

ولما عرض هذا الدستور على الشعب وافق عليه بأغلبية ساحقة ، وعلى الرغم من أن هذا الدستور وضع كل السلطات في يد بونابرت تقريبا الا أن ثقة الفرنسيين في شخصه والآمال العريضة التي علقوها عليه جعلتهم يعطونه كامل ثقتهم .

وكان من أبرز المشاكل التي أراد بونابرت حسمها هي كسر شوكة أعداء فرنسا وهزيمتهم خصوصا النمسا وبريطانيا بعد أن تطاولوا على بلاده في غيابه فقد هاجم النمساويين الذين كانوا قد أعادوا احتلال ايطاليا ،

وأنزل بهم هزيمة ساحقة وأعاد بذلك سيطرته على إيطاليا . وقد أثار
أخبار هذا النصر موجة عارمة من الحماس داخل فرنسا أدت الى توطيد
نفوذ بونابرت السياسى .

وبذلك وقتت بريطانيا وحدها فى الميدان ، وقد حاول بونابرت تأليف
قوة بحرية كبيرة فى البلطيق مكونة من الدنمارك والسويد وبروسيا والروسيا
استعدادا لمحاربة بريطانيا ، ولكن الانجليز تمكنوا من تدمير هذه القوة
بهزمتهم للأسطول الدنماركى ، وخلال ذلك مات قيصر الروسيا مما أدى
الى انقراط عقد التحالف .

ولما اتضح للطرفين أن الحروب لم تنته بينهما بسهولة ونتيجة
لتعرض بريطانيا لمشاكل داخلية صعبة ولشعور بونابرت بأهمية الوصول
للتفاهم مع بريطانيا حتى يتمكن من تأكيد سيطرته على أوروبا كل ذلك ساعد
على قناعة الطرفين بوضع حد للصراع بينهما وبضرورة اللجوء الى
المفاوضات وانتهى الأمر بعقد صلح أميان فى ٢٧ من مارس ١٨٠٢م والذى
كان من أهم نصوصه :

- ١ — اعتراف بريطانيا بحدود فرنسا الطبيعية .
- ٢ — اعتراف بريطانيا بضم فرنسا لبلجيكا ، وقسم من هولندا
وأراضى الضفة اليسرى لنهر الراين .
- ٣ — بقاء النفوذ الفرنسى فى إيطاليا .
- ٤ — تنازل بريطانيا عن جزيرة مالطة لأصحابها الشرعيين .
- ٥ — تنازل بريطانيا عن المستعمرات التى أخذتها من فرنسا فى
هولندا وأسبانيا .
- ٦ — تعهد فرنسا بالانسحاب من مصر وأعادتها للعثمانيين وبالجلء
عن نابلى والأراضى الباباوية .

وهكذا أعطى هذا الصلح مكاسب ضخمة للفرنسيين ، وجاءت
نصوده متفقة مع الأمر الواقع باستثناء تعديلات بسيطة ، وإذا كان البعض

تعد اعتبار هذا الصلح بمثابة نهاية لعصر الحروب بين بريطانيا وفرنسا فإنه في الحقيقة لم يكن سوى هدنة مؤقتة بين الطرفين .

هذا عن المكاسب الخارجية التي جلبها بونابرت لبلاده ، أما عن المكاسب الداخلية فقد عمل بونابرت على إرضاء جماهير الشعب الفرنسي بإيجاد اتفاق بين فرنسا والكنيسة . وبعد مفاوضات طويلة أمكن التوصل الى اتفاق الكنكرات في ١٦ يوليو ١٨٠١م في عهد البابا « بيوس السابع » وبمقتضاه اعترفت فرنسا بالكنيسة الكاثوليكية وسيادتها الروحية مع السماح للسلطات الحكومية بالتدخل لفرض النظام والأمن بالقوة اذا اقتضى الأمر ، وفي مقابل ذلك اعترفت البابوية بالتوانين التي صدرت في عهد الثورة الفرنسية والخاصة بالكنيسة على أن تقوم الحكومة الفرنسية بدمج مرتبات رجال الدين ، ويقوم القنصل الأول بتعيين الأساقفة على أن يوافق البابا على ذلك التعيين .

وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقية اعتبرت تنازلا عن أحد مكاسب الثورة ، فقد كان بونابرت أبعد نظرا ، حيث أرضى جماهير الفلاحين الذين كانوا يرغبون في التمسك بضرورة التقرب من الكنيسة .

يضاف الى ذلك أن أهم إنجازات بونابرت الخالدة وأهمها كانت وضعه للقانون المدني الفرنسي حيث شكل من أجل هذا الغرض لجنة تضم أكبر المشرعين الفرنسيين وقد وضع بونابرت في هذا القانون آراءه ونظرته للحياة والمجتمع من حيث تقديس سلطة الأب على أسرته ، كما اعترف هذا القانون بالزواج المدني وأبى على الطلاق ، وضمن جميع الحريات مثل حرية الفكر والنقل والمعتيدة والعمل .

ويعتبر هذا القانون من أشهر الموسوعات القانونية في العالم من حيث التركيز على المساواة الاجتماعية والتسامح الديني واحترام الحياة العائلية والملكية الخاصة وبمقتضاه نعمت فرنسا بتثبيت سلطة الأب في مجال الأسرة كما تمتع الشعب الفرنسي بحق الملكية الخاصة . والى جانب ذلك أهتم بونابرت بقضايا التعليم ، وعمل على إيجاد الحلول المناسبة لها وخاصة في التعليم الثانوي والجامعي ، وأنشأ مدارس ثانوية رسمية تمولها

الدولة ، كما أنشأ جامعة رسمية في عام ١٨٠٨ تدار مباشرة من قبل الدولة واناظ بها الاهتمام بالثقافة والفنون والآداب وتشجيع روح الدقة العلمية في الادارات والمصالح الحكومية .

كل هذه الاصلاحات جعلت للتوصل الأول بونابرت من الشعبية ما جعل الفرنسيين ينادون به قنصلا مدى الحياة ، ثم امبراطورا لفرنسا على أمل ان يمنح بلاده انى انهكتها الحروب السلام والرفاهية ، ولكن كل هذه الآمال قد تبددت نظرا لأن سياسة نابليون كانت دائما تثير مخاوفه منافسيه وخاصة بريطانيا .

وبتيجة لرضاء الشعب الفرنسى عن أعمال بونابرت تقدم البعض باقتراح تجديد مدة قنصليته لفترة اخرى تبلغ عشر سنوات عرفانا بفضلله في اقرار السلام ، والاصلاحات الداخلية التى اسعدت شعبه .

ورغبة في استئثار بونابرت بالانفراد بدفة الحكم تم تعديل هذا الاقتراح بتجاوب منقطع النظر من قبل الشعب الفرنسى ومجلس الشيوخ فتولى بونابرت القنصلية مدى الحياة كما ادخلت بعض التعديلات على الأجهزة الدستورية بحيث أصبحت فرنسا تعيش في ظل حكومة فردية - وظات شعبية بونابرت في ازدياد خصوصا بعد أن ازدادت المؤامرات ضده واستمرت كراهية أوروبا ولا سيما بريطانيا له ونتيجة لذلك أعلنت فرنسا عن ثقتها التامة ببونابرت ومنحته لقب امبراطور الفرنسيين في ١٨ من مايو ١٨٠٤ وذلك بعد صدور قرار من مجلس الشيوخ ، وبعد استفتاء حصل فيه على اغلبية الأصوات ، وفي حفل مهيب تناول بونابرت التاج من البابا « بيوس التاسع » ووضعه على رأسه ثم أقسم يمين الامبراطورية في كنيسة نوتردام في باريس ، واستمر نابليون امبراطورا من عام ١٨٠٤ الى ١٨١٥ كان خلالها أكبر شخصية سياسية وعسكرية في أوروبا ، ومن عمالقة التاريخ الكبار الذين يشار لهم بالبنان وطبقت شهرته الآفاق ، وترك طابعه على عصره والعصور التى تلته .

نعود الى الظروف الخارجية التي احاطت بفرنسا خلال هذه الفترة فنقول أن صلح اميان بين الفرنسيين والانجليز لم يستمر طويلا إذ سرعان ما حصلت محله حرب لم تتوقف الا بعد انتهاء معركة ووترلو حيث قطعت العلاقات بين بريطانيا وفرنسا في مارس ١٨٠٣ على اثر القاء نابليون القبض على بعض الانجليز ثم اندلعت نيران الحرب التي لم تقتصر على الدولتين المتنافستين بل حاولت كل منهما ربط دول أوروبا بتحالفات معها لدرجة ان انغمست معظم هذه الدول تقريبا في هذا الصراع .

وفي أعقاب ذلك اعاد نابليون احتلال نابولى وحول ايطاليا الى ملكية وراثية يحكمها ابن زوجته يوجين ، وأرسل جيشا الى هولندا ، وتوغلت قواته في المانيا واستولت على هانوفر التي كانت تحت التاج البريطانى مما ادى الى اضطراب الولايات الألمانية الى محالفته ، كما وضع أمراءها انفسهم تحت حمايته . والى جانب ذلك حاول نابليون جر روسيا وبروسيا الى محالفته ولكنه لم ينجح في ذلك .

هذا عن فرنسا اما عن الجانب الانجليزى فقد اقام اثتلافنا جديدا ضد فرنسا تكون من السويد وروسيا والنمسا ، ونتيجة لاقترب موعد المواجهة فكر نابليون في توجيه ضربة الى بريطانيا عن طريق غزوها وقهرها في عقر دارها^(٥) وأخذ في اعداد العدة لذلك خصوصا بعد وقف اسبانيا الى جانبه ، ولكن سرعان ما اتضح له أن النجاح لا يمكن أن يكون من نصيب خطته وذلك لقوة البحرية البريطانية ، وصعوبة السيطرة على المانش وخاصة بعد قيام الأسطول الانجليزى بمباغته الأسطول الفرنسى عند « الطرف الأغر » وهزيمته .

وكرد فعل لذلك ، وخشية من عواقب الأمور وجه نابليون قواته الى المانيا حيث أحرزت انتصارات رائعة على الجيش النمساوى في أولم ulm ، في ٢٠ من اكتوبر ١٨٠٥ أى بعد معركة الطرف الأغر بيوم واحد فقط ، كما تمكن الفرنسيون من احتلال فينا ، وهزيمة جيشا روسيا نمساويا مشتركا عن « أوسترلتز » ، هذا الى جانب هزيمتهم للبروسيين

(٥) جرائنت : ص ٢٠٨ .

في موقعة « جينا » ١٨٠٦ والوصول الى برلين ، ولما لجأ فردريك وليم الثالث طالبا حماية روسيا ، قام نابليون بتدبير القيصر اسكندر الأول وهزم الروس في موقعة فريدلند ونتيجة لذلك طلب القيصر الصلح فمعد صلح « تليست » في يوليو ١٨٠٧ وبمقتضاه تخلت روسيا عن املاكها غرب نهر الألب ، كما اعترف القيصر بالتغيرات التي احدثها نابليون في ألمانيا ، وتعهد بالانضمام اليه في تنفيذ الحصار القارى على بريطانيا ، وفي نظير ذلك تعهد نابليون بمساعدة القيصر في تحقيق مطامعه في فنلنده وتركيا . كل ذلك دفع نابليون الى ان يوجه كل جهوده ضد بريطانيا التي كانت العقبة الكئود أمام كل اطماعه ، ولما كانت هزيمة الانجليز في البحر في حكم المستحيل فقد اتخذ الصراع مع بريطانيا طابعا جديدا كان له اعمق الأثر في تغيير مجرى الحوادث في أوربا فقد رأى نابليون أن قوة انجلترا تكمن في صادراتها وبأن دول أوربا هي سوقها الرئيسي وانه من الممكن بعد أن بسط نابليون سلطانه على أوربا محاصرة بريطانيا اقتصاديا بأن يفرض عليها حصارا قاريا عن طريق اقصاء السفن الانجليزية عن جميع موانئ أوربا مما يجعل الانجليز يموتون جوعا ولذلك أصدر مرسوم برلين ١٨٠٦ والذي يقضى بفرض حالة الحصار على الجزائر البريطانية وتحريم كل انواع التجارة بينها وبين الأراضى التي تخضع لحكم نابليون أو نفوذه ، وردت الحكومة البريطانية على ذلك باتهام فرنسا بالخروج على تقاليد الحرب وضربت بريطانيا الحصار على الأراضى الفرنسية . وهكذا اقصى نابليون بقوته البحرية بريطانيا عن التجارة مع أوربا فعزلت بريطانيا ببحريتها أوربا الفرنسية عن التجارة مع بقية العالم ، ومما لا شك فيه أن بريطانيا قد تأثرت من هذا الحظر الذى سمي بالنظام القارى فقد تفشت البطالة وكثرت حالات الاملاس غير أنه وان كانت للأسواق الأوربية أهمية بالنسبة لبريطانيا فان باقى العالم كان مفتوحا^(٦) وكان أسوأ نتائج نظام نابليون القارى من نصيب الدول الأوربية الواقعة تحت السيطرة الفرنسية فقد وجدت هولنده في هذا النظام قضاء تاما على حياتها التجارية كما وجدت الدول الأخرى الحليفة لفرنسا أن في تطبقي الحصار القارى على انجلترا ضررا كبيرا يمكن أن يؤدى الى موت شعوبهم جوعا .

كل ذلك جعل هذه الدول تفكر في الخروج على هذا الحصار ، وكانت البرتغال هي أولى الدول التي خرجت عنه خصوصا وان حياتها الاقتصادية تعتمد في المقام الاول على التجارة مع بريطانيا وحتى لا تحذو الدول الحليفة لفرنسا حذو البرتغال أسرع نابليون بإرسال حملة الى اسبانيا في محاولة لتأديب البرتغال ، وكان ذلك فاتحة نهاية عصره حيث اصطفت هذه الحرب بصيغة تختلف تماما عن كل الحروب الأخرى حيث لم تقتصر الجيوش الفرنسية على محاربة الحكومات وجيوشها النظامية بل أصبحت في مواجهة الشعوب التي أخذت تضطلع بدور تلقائي في محاربة الغزاة . فالجيوش الفرنسية التي لم تهزم من قبل على أيدي جيوش نظامية قبل عام ١٨١٣ أصبحت تواجه جيوشا شعبية في أودية اسبانيا وجبال التيرول مما أنهك قواها بدرجة كبيرة وادى الى بث الرعب بين أفرادها ، وأوقعها في ورطة لم تكن في حساباتها .

يضاف الى ذلك تورط نابليون باصطدامه مع الشعور الدينى في أوروبا خصوصا بعد أن قام في مايو ١٨٠٨ بضم أملاك البابا الى فرنسا ورد البابا على ذلك بحرمانه من غفران الكنيسة ، ثم قبض نابليون على البابا وسجنه في بلده قريبة من مدينة جنوة مما أثار نائرة الشعوب الكاثوليكية ضده ، وجعل البابا يرفض تثبيت الأساقفة المعينين في فرنسا من قبل نابليون مما تسبب في جعل ٢٧ أسقفية شاغرة في فرنسا . وكان رد نابليون على ذلك هو اصدار قرار يخول لرؤساء الأساقفة حق تثبيت أساقفة فرنسا واعطائهم السلطة الروحية طالما أصر البابا على عناده .

ونتيجة لذلك ظهرت بارقة الأمل في امكان تحرير أوروبا من سيطرة نابليون . لقد دفعت العاطفتان الرئيسيتان عند الشعب الأسباني وهما الدين والعزة القومية الى مقاومة الفرنسيين بعناد ، وراحت الأقاليم والمدن الأسبانية تعلن تلقائيا رفضها لحكم نابليون ، وأعلنت بريطانيا استعدادها لتقديم المعونة لكل من اسبانيا والبرتغال ، وتمكن الأسبان من الحاق أول هزيمة جدية بجيوش نابليون عند « بايلن » وأرغموها على إخلاء مدريد كما أجبروا أحد القادة الفرنسيين على التسليم بقواته المكونة من عشرين ألف جندي . كل ذلك اضطر نابليون الى الحضور بنفسه لتولى زمام

الأمر ورد هبة الجيوش الفرنسية فاحتل مدريد وبطش بأهلها حتى دانت له العاصمة الإسبانية . ولكن ذلك لم يستمر طويلا حيث بدأ الإسبان حروبهم غير النظامية بطريقة ملتفة للأنظار خاصة بعد أن أظهر الرهبان والزراع منهم قدرة خارقة في الدفاع عن بلادهم^(٧) مما استنزف القوات الفرنسية ، وجعل حروب إسبانيا بالنسبة لهم وكأنها السرطان الذي يستنزف قواهم ، ونتيجة لذلك لعبت الروح القومية بين الأوربيين دورها ، فبادرت أوروبا بمساعدة إسبانيا ، والانتقاض على حكم نابليون كما أنتهزته بريطانيا الفرصة فأرسلت جيشا الى البرتغال لمساعدة الأسبان والبرتغاليين في دحر القوات الفرنسية . كما واثت أوروبا الفرصة للتخلص من الحصار القارى الذى فرضه نابليون عليها والذى أدى الى الركود الاقتصادى وخفض مستوى المعيشة فحاولت النمسا فى عام ١٨٠٩ استنزاف القوات الفرنسية مما أدى الى اعلان نابليون الحرب على النمسا ، ومع أن القوات النمساوية أظهرت مقاومة مستميتة ، فانها لم تستطع الصمود أمام القوات الفرنسية ، فسرعان ما حلت بها الهزائم وفتحت أبواب فينا أمام نابليون. فى مايو ١٨٠٩ .

والى جانب ذلك بدأت بروسيا استعدادتها لخوض غمار حرب التحرير كما أخذ الرأى العام الأوروبى يتجه الى مناوأة نابليون بصورة متزايدة ، وأخذ الشعور القومى فى أوروبا يقوى ويتزايد ، وظلت الحرب الإسبانية مستعرة الأوار . وقبل ان يتمكن نابليون من اخماد هذه الحركات جاءه من الشرق خطر أشد فقد قرر قيصر روسيا الانسحاب من الحصار القارى واستئناف علاقات بلاده مع بريطانيا مما أدى الى فرط عقد التحالف بينه وبين فرنسا وبداية الاحتكاك مع نابليون الذى جهز جيشا قوامه ستمائة ألف مقاتل لغزو روسيا ، وكانت خطة القيصر لمواجهة هذا الغزو تتركز فى استدراج الفرنسيين الى داخل بلاده دون الالتحام معهم فى معركة فاصلة ولتحقيق ذلك أمر جيوشه بالتقهقر أمام القوات الفرنسية ، واخلاء المدن والقرى من الزاد والعتاد والسكان قبيل استيلاء الفرنسيين عليها .

وبعد أن زحفت القوات الفرنسية الى موسكو وتوقعت الظفر

(٧) جرائد : المرجع السابق ص ٢٣٩ - ٢٤٢ .

باستسلام القيصر . وجدت ن أحلامها قد باءت بالفشل فدخلت مدينة مهجورة أشعل فيها الروس النار التي أتت على المؤن والجياد ولما حاول بونابرت التفاوض مع قيصر روسيا وعقد اتفاق للصلح رفض القيصر طلبه . ونظرا لضراوة الأحوال الجوية وقسوة شتاء موسكو اضطرت القوات الفرنسية الى الارتداد والانسحاب من روسيا في ١٩ من أكتوبر على أمل أن تعود الى بلادها سالمة ، ولكن القائد الروسى « كوتوزوف » سد الطرق أمامها وجردها من كل امكانيات الحياة ، فكان ذلك كفيلا بالقضاء على القوات الفرنسية وانتشار الأمراض بينها ، ونتيجة لذلك خسر الجيش الفرنسى الآلاف من جنوده في أكبر كارثة حاقت به لدرجة أن قدرت خسائر نابليون على الجبهة الروسية بحوالى ١٧٠ ألف قتيل .

ونتيجة للأخبار الواردة من موسكو والخسائر التى منى بها نابليون وجدت الدول الأوربية الرازحة تحت حكم نابليون الفرصة للتفيس عما يجيش فى صدرها ضده ، فسرت فى النفوس روح المقاومة وسرعان ما انضمت بروسيا والولايات الألمانية الوسطى والشمالية لمواجهة قوات نابليون ، وعلى الرغم من خطورة موقف نابليون فإنه لم ييأس بل أخذ فى استعادة قواه بعد نكته فى روسيا ودعا الشعب الفرنسى الى بذل النفس والنفس دفاعا عن أمجاد فرنسا حتى وصل عدد جنوده الى ما يقرب من النصف مليون ، وخلال ذلك حاول نابليون أن يفرض على أوروبا الصلح بنصر وؤزر ، وكان يأمل فى ابقاء بروسيا والنمسا الى جانبه ، ولكن الشعب الروسى أرغم ملكه فردريك وليم على الامتناع عن مساعدة الفرنسيين ، والانضمام الى قيصر روسيا حتى يتم القضاء على سلطان نابليون فى أوروبا ، وفعلت النمسا ما فعلته بروسيا ، ومع كل ذلك استطاع نابليون أن يهزم البروسيين والروس فى معركة « لقرن » و « بوتزن » ولكن هذه الانتصارات لم تكن لها فاعليتها حيث أن أوروبا قد تغيرت ودبت فيها الروح القومية فتراجع الحلفاء المنهزمين شرقا ، ونظموا صفوفهم استعدادا لمعارك أخرى ، وجمعوا ما يقرب من مليون رجل وقرروا استنزاف قوى نابليون بالدخول مع قواته فى سلسلة من الهجمات غير الحاسمة ، ولما حاول نابليون عقد الهدنة مع خصومه طلبوا منه عودة أملاكهم اليهم فرفض وقرر نابليون أن أعداءه يستعدون الى مهاجمته

فسبقتهم اليها واحرز نصرا كاملا ولكن ضباطه فشلوا في تعزيز خطه .
وفي ١٦ اكتوبر ١٨١٣ بدأت معركة لبيزج Leipzig أو « حرب
الأمم » ودار القتال فيها طوال ثلاثة أيام ولم يكن كله في صالح الحلفاء فقد
بلغت الخسائر حوالي ١٣٠.٠٠٠ رجل منهم حوالي ٥٠.٠٠٠ من الفرنسيين
ولما وصل الجيش الفرنسي الى الراين في أول ديسمبر فتك المرض
بأفراده فتكا ذريعا وسرعان ما استسلمت الحاميات التي تركها نابليون
وراءه في ألمانيا وعددها حوالي ١٩٠.٠٠٠ رجل فلم يبق أثر لسلطان
نابليون شرقي الراين ، وكانت الجيوش الفرنسية قد سحبت كلها تقريبا
من أسبانيا وأصبح على فرنسا أن تواجه الآن أهوال الغزو التي أذاقتها
للعديد من بلدان أوروبا وكانت فرنسا قد سئمت الحرب ونضب معينها من
الرجال ولحق الخراب بتجارها وتجاسر البعض على النطق مرة أخرى
بشعارات الثورة ورأى الملكيون أن الفرصة سانحة لعودة آل بربون
الى الحكم ، ومع ذلك فقد ظل هناك فيض طيب من الولاء لنابليون اذ كان
يمثل في رأى الكثير من الفرنسيين رمز الدفاع عن أرض الوطن ، وخلال ذلك
الوقت العصيب بالنسبة لفرنسا تجلت عبقرية نابليون العسكرية كقائد
استراتيجي له ارادة قوية وأعصاب حديدية استطاع أن يحيل الهزيمة الى
نصر ويلحق بقوات الحلفاء الهزيمة على أرض فرنسا مرتين ونتيجة لذلك
أصبح نابليون شخصية شعبية من جديد ، وهب الفلاحون في أقاليم كثيرة
من فرنسا يحملون السلاح ، ودارت مفاوضات بتصد تسوية الأمور ولكن
الأمال سرعان ما تبددت ولم يبق مفر سوى الاستمرار في الحرب^(٩) ، وأظهر
نابليون جسارته المعهودة ، واحرز الكثير من النجاح ولكن مركزه بدأ
يتزعزع خصوصا وأن قواته كانت تعاني الكثير من الارهاق على حين كان
أعداؤه يملكون احتياطيًا ضخما من العتاد والرجال ، وبدأ الحلفاء يتقدمون
نحو باريس ، وهم يظنون أنهم لا يحاربون الشعب الفرنسي وإنما يحاربون
نابليون ومع ذلك فقد دافع الشعب الفرنسي عن بلاده دفاعا مجيدا ،
وتبادلت لاقوات المتحاربة الانتصارات والهزائم ، وفقد الطرفان الكثير من
الأرواح ، وفي نهاية الأمر تمكن الحلفاء من دخول باريس في مارس ١٨١٤ ،

(٨) جرائد ص ٢٦١ — ٢٦٣ .

وعلى الرغم من ذلك فقد راودت نابليون فكرة مواصلة الحرب من خارج باريس ولكنه سرعان ما غير موقفه خاصة بعد أن وجد أن قواته قد سئمت القتال وأن الروح المعنوية بين أفرادها آخذة في الانهيار ، فوقع في ٦ من ابريل ١٨١٤ وثيقة تنازله عن العرش لابنه على أن يكون تحت وصاية زوجته ماري لويز ، ولكن الحلفاء رفضوا ذلك ، وطلبوا من نابليون التنازل عن العرش دون قيد أو شرط ، ونتيجة للضغوط المتزايدة وقّع نابليون وثيقة التنازل ، وفحواها أنه نظرا لأن الدول المتحالفة أعلنت أن الامبراطور نابليون هو العقبة الوحيدة في طريق إعادة اقرار السلم في أوروبا فإن الامبراطور وفاء منه لليمين الذى أداه يعلن تنازله هو وورثته من بعده عن عرش فرنسا وايطاليا .

ونتيجة لذلك أبرمت الدول المتحالفة اتفاقا مع حكومة فرنسا ينص على نفي نابليون الى جزيرة البارا Elba بالقرب من سواحل ايطاليا^(١٠) على أن يقوم بحكم هذه الجزيرة وتكون مسكنا له يقيم بها ولا يغادرها على أن تكون خاضعة لسيادته سياسيا واداريا ويتبعه اليه جيش صغير مؤلف من أربعمائة جندي يختارهم من بين فرقة الحرس الامبراطورى ، وقررت له مليونين من الفرنكات كنفقة سنوية تقدمها اليه الحكومة الفرنسية .

وقد حل نابليون بمنفاه في الرابع من مايو ١٨١٤ ، حيث استقبله أهل الجزيرة بمظاهر العطف والترحاب ومع أن سقوط نابليون قد أدى الى تسوية العديد من المشاكل فإنه أوجد مشكلة جد خطيرة وهى : من الذى يحكم فرنسا من بعده ، وأخيرا استقر الراى على عودة أسرة آل بريون الى عرش فرنسا ممثلة في شخصية لوبس الثامن عشر^(١١) على أن يكون حكمه دستوريا ، ونتيجة لذلك عاد الحكم الملكى الى فرنسا في مايو ١٨١٤ .

كما تم الاتفاق بين الحلفاء في مؤتمر فيينا في سبتمبر ١٨١٤ على عودة فرنسا الى حدودها قبيل الثورة ، يضاف اليها بعض البقاع عند حدودها

(٩) جزيرة صغيرة واقعة شرقى جزيرة كورسيكا وكانت من املاك ايطاليا .

(١٠) شقيق لويس السادس عشر ، علما بأن لويس السابع عشر ابن ماري انطوانيت ولويس السادس عشر قد توفى في سجنه أثناء الثورة .

الشمالية والشرقية مما يوضح أن الحلفاء لم يكونوا متشددين في حكمهم نحو فرنسا خاصة وأنهم كانوا يرغبون في استقرار وعودة السلام الى أوروبا ، رغم كل ذلك فقد انتهب نابليون فرصة اختلاف الحلفاء فيما بينهم على تقسيم الفنائم ، وعاد الى فرنسا وسط ترحيب السواد الأعظم من الشعب الفرنسي بمقدمه مما اضطر الملك والنبل الى مغادرة البلاد .

وبعد أن تجمع حول نابليون جيشه القديم دخل باريس في ٢١ من مارس ١٨١٥م وأخذ في إعادة تنظيم قواته ثم توجه الى جبهة القتال في ١٢ من يونيو هادفا الى توجيه ضربة قوية الى القوات البريطانية والبروسية قبل أن يتمكن من حشد قواتها ، وأحرز نصرا محسوسا ضد الروسيين في « لينى » .

ونتيجة لذلك أعاد الحلفاء تشكيل جبهتهم ، وقرروا غزو فرنسا مرة أخرى فقابلهم نابليون في معركة « ووترلو » في ١٨ يونيو حيث دارت معارك ضارية أصيبت فيها قوات نابليون بهزيمة قاسية راح ضحيتها أكثر من ثلاثين ألف قتيل وعلى أثر ذلك استسلمت باريس للحلفاء ، وحاول نابليون الفرار الى أمريكا ، ولكن الانجليز تمكنوا من القبض عليه ، وشاموا بنفيه الى جزيرة القديسة هيلانة في جنوب المحيط الأطلسي تلك الجزيرة النائية السحيقة الجرداء في وسط المحيط حيث تضى السنوات الست الأخيرة من حياته يقاسى آلام التعنت من حاكمها السر هيدسون لاو الذى كانت مهمته الاجهاز على الامبراطور والتنكيل به ، فتخبر لسكن نابليون منزلا حقيرا أكلت الرطوبة بياض جدرانه واتخذت الجرذان حجورها في زواياها وأركانها فكانت اذ جن الليل تخرج لترتع فوق سريرها وتأكل كتبه وأوراقه ، ولم يدع فرصة للتنكيل بنابليون الا واغتنمها حتى مات الامبراطور المريض في ٥ مايو ١٨٢١ وحيدا شريدا مجردا من أبسط الحقوق الانسانية ، ودفن في نفس الجزيرة وأقيم حول قبره جنود لحراسة بقايا الميت الذى بلغ من احتقار حاكم الجزيرة له أنه لم يأذن في كتابة اسم نابليون على القبر مع أنه الرجل الذى ظل اسمه يرهب أوروبا كلها حتى بعد وفاته .

والى جانب ذلك فقد ظلت بقايا أموال نابليون ووصيته في حيازة الحكومة الانجليزية التى رفضت أن تسلمها لفرنسا .

وهكذا انتهت قصة حياة أحد عناقرة أوروبا العسكريين في القرن التاسع عشر بعد أن قدم لبلاده كل ما يملك من جهود ليس فقط في النواحي العسكرية بل في النواحي السياسية والعلمية والادارية والتشريعية وغيرها .

وقد عبر نابليون عن ذلك في مذكراته بأبلغ تعبير حيث قال « ان الذى لم يمح أبدا هو قانونى المدنى ، ومحاضر مجلس دولتى ، ومكاتباتى مع وزرائى ، فقانونى ببساطة جلب الخير أكثر مما جلبت القوانين السابقة ، ومدارسى والطرق التى ابتكرتها للتعليم أوجدت جيلا جديدا ، كما نقصت الجرائم فى عهدى وزادت فى انجلترا وقد أردت تأسيس نظام واحد لأوربا ، ووضع قانون واحد وانشاء محكمة نقض واحدة لها . ولم تم هذا لبات فى أوربا شعب واحد » (١٢) .

وعلى كل حال فبعد ووترلو تغيرت معاملة الحلفاء لفرنسا وفرضت غرامات حربية عليها كما تم تضيق رقعة حدودها بحيث عادت الى ما كانت عليه عام ١٧٩٠م .

والسؤال المطروح هو هل تنفست أوربا الصعداء بوفاء نابليون .

الواقع أنه بالرغم من أن دول أوربا قد استراحت من هذا الكابوس الذى أقض مضجعها نحو ربع قرن من الزمان فان رجال السياسة فيها ظلوا ردحا من الزمن وشبح نابليون يتمثل لهم أينما ساروا وكيئما توجهوا ، كما ظلت المخاوف تساورهم خصوصا وأن الامبراطورة ماري لويز أرملة نابليون كانت تطمع فى تنفيذ وصية زوجها بأن يرتقى عرش فرنسا ابنهما « الملقب بالنسر » هذا الى جانب أن عرش أسرة البريون التى عادت الى حكم فرنسا لم تكن ركائزه وطيدة .

وعلى الرغم من عودة أسرة البريون الى فرنسا بعد ووترلو فان الأمور لم تتغير كثيرا فى نظام المجتمع الفرنسى ، ولم يفكر أحد فى إلغاء القوانين التى صدرت أيام الثورة أو إعادة امتيازات الملكية أو النبلاء ،

(١١) اميل لودنيج : نابليون — ترجمة محمود ابراهيم الدسوقي
القاهرة ، دار الكاتب المصرى ص. ٢٩٠ .

والى جانب ذلك ناهض العديد من الفرنسيين النظام الملكى ، وكان محل كراهيتهم خصوصا وانه أعيد الى فرنسا على أسسنة حراب الحلفاء المنتصرين عليها ونتيجة لهذه الأمور كان مركز لويس الثامن عشر (١٨١٤ — ١٨٢٤) حرجا للغاية . ومع ذلك فقد استطاعت فرنسا فى عهده تنظيم ماليتها ، ودفع الغرامة الحربية التى فرضتها الدول المنتصرة عليها ، وان يسترجع مكائنها السياسية بين الدول الأوربية .

وبعد أن توفى لويس الثامن عشر خلفه على عرش فرنسا « شارل العاشر »^(١٣) ذلك الملك الذى حاول العودة بفرنسا الى نظام ما قبل الثورة ، فأمر بالحد من حرية الصحافة ، وحل البرلمان ، ومنح تعويضات مالية للنبلاء المهاجرين ، مما أدى الى خلاف حاد بينه وبين الشعب انتهى باقصائه عن العرش ، وتوليه لويس فليب مكانه .

وقد قبل الملك الجديد الانضواء تحت علم الثورة الفرنسية ذى الثلاثة ألوان ، والسير بمقتضى النظم الديمقراطية مما جعله يحصل على رضا الشعب الفرنسى وتأييده . وبخاصة وانه كان خبيرا بشئون الحكم ويملك من القدرة والذكاء ما مكنه من ادارة دفة الأمور بحكمة واقتدار ، ومع ذلك فقد جلب تساهله الزائد مع بريطانيا ، وعدم اهتمامه بأمر رجال الدين الى اصطدامه مع التيار البونابرتى الذى كان يتزعمه لويس بونابرت ، وأعاد فيه الى الأذهان اسم نابليون وانتصاراته وأمجاده ، والى اصطدامه أيضا مع التيار الجمهورى الاشتراكى الذى كان ينادى به أتباع سان سيمون ، وبدعو الى ضرورة تنظيم العمل والغاء مبدأ التوريث ، واصلاح احوال الطبقات ولما قاومت الحكومة هذه المطالب وجدت نفسها أمام عصيان شعبي ، مما دفع الملك الى التنازل عن العرش والهرب الى انجلترا .

وخلال ذلك برزت فكرة الجمهورية على مسرح الأحداث وتزعمت باريس الدعوة اليها .

وفى الاستفتاء الشعبى الذى عقد فى العاشر من ديسمبر ١٨٤٨م لانتخاب رئيس الجمهورية نال لويس بونابرت معظم أصوات الناخبين ، ونتيجة لذلك دخلت فرنسا مرحلة جديدة من حياتها .

(١٢) تم غزو الجزائر فى عهده ،